أثر القرآن الكريم في الحفاظ على أصالة اللغة العربية من خلال المصنفات حوله

د. عفاف عبد الغفور حميد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الأمين وعلى اله وصحبه أجمعين

بما أن المصدَرَ الأول لديننا الحنيف هو القرآن الكريم الذي قد أوحاه الله باللغة العربية ولا سبيل إلى فهمه وإدراكه إلا بتعلم اللغة العربية، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فمن أراد أن يتفهّم القرآن والسنة فعليه بتعلم واتقان اللغة العربية، يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ به الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

فهذه الآيات المباركة فيها دلالة واضحة على ربانية وعربية قرآننا، وسلامة اللغة العربية من التناقض والاعوجاج، ولقد أدرك السلف الصالح من علمائنا أهمية فهم وحفظ ثم نشر الشريعة الإلهية، وأدركوا أنه لا يمكن نشرها إلا من خلال الوسيلة واللغة التي نزلت، فانكبوا على تعلم اللغة العربية وهم من غير العرب، وأصبحوا أئمة وفرساناً في الشريعة والتفسير والحديث واللغة، مثل الإمام الطبري والإمام الرازي والإمام البخاري والإمام مسلم وسيبويه وغيرهم كثير.

ومع انتشار رقعة الإسلام في أرجاء المعمورة انشرت اللغة العربية بين صفوف المسلمين العرب وغير العرب، وأقبل المسلمون يتعلمون كتاب الله عز وجل ويحفظونه ويعلمونه لغيره. فقد أسبغ القرآن الكريم وأضفى قداسة على اللغة العربية، وأدرك المسلم أنه إذا ما أراد التقرب إلى الله عز وجل بتلاوة كتابه الكريم وفهمه، فلابد من ملازمة مجالس العلماء وحلقات العلم، وتعلم اللغة لعربية منهم حتى يستطيع أن يتلو كتاب الله حق تلاوته. وقد واجهت اللغة العربية تحديات استهدفت وجودها ولولا كتاب الله عز وجل المحفوظ من الله تبارك وتعالى وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصابت اللغة العربية ما أصاب باقي اللغات من الانصهار والاضمحلال والذوبان والغياب بل أكسب القرآن الكريم اللغة العربية بقاء وثباتاً إلى قيام الساعة فلله الحمد أولاً وآخرا.

وفضلا عن كون القرآن الكريم الحافظ الأساسي للغة العربية من الضياع، فقد أجمع العلماء والباحثون على كون القرآن أيضاً حاوياً وحافظاً للهجات العربية الأصيلة من الانقراض من خلال اشتمال القرآن الكريم على القراءات القرآنية المتواترة والشاذة، والتي رواها لنا الثقات من القراء الأجلاء مشافهة بالتواتر جيلاً عن جيل إلى يومنا هذا. ففي هذا الكنز العلمي العظيم يظهر فضل الإسلام الذي ارتضاه الله ديناً للعالمين، وأن مصير اللغة العربية والمسلمين مرتبط بمصير الدين الإسلامي ومدى تمسك الناس بشرائعه وأحكامه وأوامره ونواهيه.

والقرآن الكريم كان الملهم لنشوء علوم كثيرة ساعدت في ترسيخ اللغة العربية، وعنه نشأت أكثر العلوم العربية خدمة له، ولا يكاد يخلو علم من تأثير القرآن عليه أساساً أو ضمناً، فهي وعاء العلوم الإسلامية كلها، فلا يوجد علم إلا ولها في عنقه منَّةٌ، فمنها ينطلق وبألفاظها يبني أصوله ومناهجه، وعلى أساسها يضع مفاهيمه ومصطلحاته.

يقول الرافعي: "فلا نجد من رجل روى أو صنف أو أملى في فن من فنون الآداب أول عهدهم بذلك، إلا خدمة للقرآن الكريم، ثم استقلت الفنون بعد ذلك وبقي أثر هذا المعنى في فواتح الكتب، والقرآن نفسه حادثة أدبية من المعجزات الحقيقية التي لا شبهة فيها، وإن لم يفهم سر ذلك

من لا يفهمه"١، فلو تخيلنا أن القرآن حين نزل – وحتى بعد جمعه – لم تؤلف العلوم حوله لصار بعد أجيال وخصوصا بعد دخول اللحن رموزا وطلاسم، وازدادت غربة العربية شيئًا فشيئًا.

ولذا يتناول هذا البحث من خلال محورين، أولهما: أثر المصنفات المباشرة في الحفاظ على اللغة العربية، والثاني: أثر المصنفات غير المباشرة في الحفاظ على اللغة العربية، والخاتمة للنتائج والحمد لله رب العالمين .

المحور الأول: أثر المصنفات المباشرة للقرآن الكريم في الحفاظ على اللغة العربية

ظهرت علوم كثيرة مباشرة حول نص القرآن وأول علم مدوّن هو علم رسم المصحف حين جمع عثمان بن عفان المصحف وأرسل نسخا منه إلى الأمصار، ثم إعراب القرآن، وهذا بيان للعلوم المباشرة الصلة بالقرآن:

١- علم القراءات

وهو أحد العلوم القرآنية التي شغف بها سلفنا الصالح، وأفنوا أعمارهم فيها في الطلب والتحصيل، وفي التدريس، والإملاء والكتابة والتصنيف، نشرا للعلم وأداءا للأمانة ورجاء للثواب، فأورثونا تراثا غنيا.

وهو أوثق العلوم صلة بكتاب الله، شرفه من شرف موضوعه، وبه يعرف تاريخ القرآن الكريم، وتواتر نقله جيلا بعد جيل، وبه يعرف الصحيح من الشاذ، وما تصح به الصلاة وما لا تصح من القراءة، وبهذ اكتسب هذا العلم تلك الأهمية.

وقد ورد من الأحاديث النبوية في شرف هذا العلم الكثير منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله أهلين من الناس، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته"٢، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "خيركم من تعلم القرآن وعلّمه"٣.

ومعلوم أن هناك صلة وثيقة بين القراءات واللغة العربية حيث "تعتبر روايات القراءات القرآنية مشهورها وشاذها هي أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية والصرفية، والنحوية واللغوية بعامة في مختلف الألسنة واللهجات، وإن من الممكن القول: بأن القراءات الشاذة هي أغنى مأثورات التراث بالمادة اللغوية التي تصلح أساسا للدراسات الحديثة التي يلمح فيها المرء صورة تاريخ هذه اللغة الخالدة"٤.

وقد قدّم علم القراءات للغة العربية خدمة كبرى حيث "إن البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة، كان من أبلغ العوامل في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها، وكانت ثمرة هذا الاهتمام والجهد أن القراء تشربوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها، ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كالفرّاء كانوا مبرّزين في علم القراءات، كما كان الكثيرون من أئمة القرّاء كأبي عمرو والكسائي بارعين في علم النحو"٥.

وعلم القراءات من العلوم التي يحتاجها المفسر، وهو شرط من شروط الأهلية للمفسر قبل أن يقدم على تفسير كتاب الله تعالى، حيث يتعرّف به على "اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص، أو تغيير حركة، أو إتيان لفظ بدل لفظ، وذلك بتواتر وآحاد"٦، كما أنه بالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض٧.

والقراءات سند لكثير من الفقهاء وحجة في العديد من القضايا الفقهية، وباختلاف القراءات يظهر اختلاف الأحكام وله أمثلة كثيرة تراجع في مظانها من الكتب.

٢- علم رسم المصحف

لما جاء الإسلام رفع من شأن الكتابة وتعلمها، وشأن العلم والمعرفة وليس أدل على ذلك من أول سورة نزلت منه، أشادت بالقلم وأنه أداة العلم والمعرفة الكسبيين، وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ × خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ × اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ × الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ × عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥]، فقوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ إشارة إلى العلم الكسبي، وقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ إشارة إلى العلم الوهبي. وهذا هو الله سبحانه وتعالى يقسم بالقلم فيقول: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] وفي القسم به من ذي الجلال إشادة به، وتنبيه الناس إلى ما فيه من الفوائد والمزايا.

وقد جمع القرآن الكريم ابتداء ومر الجمع بثلاث مراحل في عهد النبي وأبي بكر وآخرها عثمان بن عفان رضي الله عنهم، فسمي بالرسم العثماني، ورسم المصحف يراد به الوضع الذي ارتضاه عثمان رضي الله عنه، ومن كان معه من الصحابة في كتابة كلمات القرآن ورسم حروفه في المصاحف التي وجه بها إلى الآفاق.

ويُراد بـ رسم المصحف: "صورة ما

كُتِبَ في المصاحف العثمانية"٨، ويُراد بـ فنّ رسم المصحف: "أوضاعُ حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطيّة"٩.

والرسم الذي دوّنت به المصاحف العثمانية هو رسم العربية الذي كان سائداً في المدينة المنوّرة زمن الجمع العثماني سنة خمس وعشرين من هجرة النبيّ الكريم١٠. وقد قال كثيرون بتوقيفيّة الرسم العثماني، وأنّه من عند الله تعالى، في حين ذهب آخرون إلى أنّه اجتهادٌ من الصحابة١١.

وقد بيّن البحث المعاصر أنّ هذا الرسم - على المظنون - امتداد للرسم النبطي في ثويه المتأخّر، حيث ورث كثيراً من سمات ذلك الرسم، فجاء غير معجم ولا مشكول، تغيب عنه الألفات الداخلية إجمالاً، ويعوزه كثيرٌ من المحدِّدات والرموز كالشدّة، والهمزة، والمدّة، إلى غير ذلك من نواحي النقص والإبهام١٢. وقد مرّ رسم المصحف بمراحل أهمها النقط والشكل:

أ- نقَّط المصحف: كان الخطُّ عندما اقتبسه العرب من السريان والأنباط خالياً من الإعجام، ولا تزال الخطوط السريانية بلا إعجام إلى اليوم، وهكذا بقي الخطّ العربي حتّى منتصف القرن الأوَّل، ثمّ دخل عليه الإعجام في أواخر القرن الأوّل الهجري، حيث تعرَّف الناس على نُقَط الحروف المعجمة وامتيازها عن الحروف المهملة، وذلك على يد يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، تلميذَي أبي الأسود الدؤلي، بعد أن اتّسعت الدولة الإسلامية، واختلط العرب بالعجم، فبدأ اللبس والإشكال في قراءة المصاحف بين الناس، حتى شقّ على كثير منهم أن يهتدي لقراءة القرآن قراءة صحيحة من دون وجود الإعجام١٣.

ب- شكّل المصحف: كان الخطّ العربي في أوّل عهده مجرَّداً عن التشكيل وعن كلّ علامة تشير إلى حركة الكلمة أو إعرابها، وبعد توسّع الفتوحات الإسلامية شعر المسلمون بوجود حاجة ماسّة إلى وضع علامات تشكيلية للمصحف تُؤمنهم من الوقوع في الخطأ واللحن عند قراءة القرآن، ولا سيما بعد دخول العجمة على اللسان العربي.

ونُقِلَ أنَّ أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ التوبة: ٣- بكسر اللام في رسوله - فقال: ما ظننت أنَّ أمر الناس آلَ إلى هذا، فرجع إلى زياد بن أبيه - وكان والياً على الكوفة (٥٠ - ٥٣ هـ)، وكان قد طلب إليه أن يصنع شيئاً يكون للناس إماماً، ويُعرَف به كتاب الله، فاستعفاه أبو الأسود، حتّى سمع بنفسه هذا اللحن في كلام الله، فعند ذلك عزم على إنجاز ما طلبه زياد، وكان أبو الأسود يقول للكاتب: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه من أعلاه، وإن ضممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف١٤.

وما أضيف من نقط وشكل وغيره يسمى تحسينات تساعد على القراءة ولا تغير في الرسم، وبعدها صار علما مستقلا ألف فيه المتقدمون والمتأخرون منهم الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه المقنع، وألف فيه أيضاً الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي كتيباً صغيراً سماه: إيقاظ الأعلام إلى اتباع رسم المصحف الإمام.

لقد ساهم هذا العلم بثبيت الحرف العربي لأن القرآن نزل بالعربية فحافظ على ثباتها خصوصا بعدما أفتى العلماء بعدم جواز مخالفة الرسم العثماني وهو الراجح.

٣- علم إعراب القرآن

نشأ هذا العلم صيانة لكتاب الله من اللحن، واللحن هو: "إمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية، يقال: لحن لحنا، واللّحان واللّحانة: الرجل الكثير اللحن"١٥.

وكانت ألسنة العرب في جاهليتها صحيحة لا ضعف ولا هجنة، ورثوا سلامة المنطق عن آبائهم وأجدادهم على تقادم العصور وحقب الدهر١٦.

واستمر ذلك في عصر البعثة والصدر الأول من الصحابة واللحن لا يلامس عربيتهم، ولا يقارب ساحة القرآن على ألسنتهم، وبدأ اللحن يظهر عندما اختلطت ألسنتهم، لخروج العربية من مهدها الأصيل مع كتائب الفاتحين، وظهور جيل من المولدين العرب فأخذ الصحابة يحثون على تعلم لسان العرب وظهرت مقولة: "إن القرآن عربي فاستقرئوه رجلا عربيا"١٧.

وهناك آثار كثيرة عن الصحابة رضي الله عنهم تنهى عن اللحن كعمر بن الخطاب وأبي ذر وابن مسعود، فقد خرج عمر رضي الله عنه على قوم في المسجد، وهم يقرئ بعضهم بعضا، فقال: ما كنتم تراجعون بينكم؟ قالوا: كنا يقرئ بعضنا بعضا، قال: اقرؤوا ولا تلحنوا"١٨.

وكان منهج التلقي للقرآن الكريم على الصفة التي أنزل عليها نفى عن القرآن كل

صور اللحن، فإن اللحن ميل وخروج عن الصواب، والله تعالى يقول: ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ الزمر: ٢٨، وقراءة القرآن سنة يأخذها الأول عن الآخر بالتلقي.

واللحن في القرآن جعله العلماء في قسمين: اللحن الخفي: وهو الخطأ في ضبط الحروف، فلا يوفي الحرف حقه، وأن يقصر في صفته التي هي له، أو يزيد على ذلك كالإفراط في التمطيط والتعسف في التفكيك١٩. اللحن الجلي: وهو الخطأ في ضبط الإعراب، فترفع المنصوب، أو تنصب المرفوع، أو تخفض المنصوب والمرفوع وما أشبه ذلك.

فاللحن الجلي يعرفه المقرئون والنحويون، أما الخفي فلا يعرفه إلا المقرئ المتقن الضابط٢٠، وقد تكفل بالجلي علم النحو، وبالخفي علم التجويد. وتطبيق القواعد النحوية على النص القرآني ما هو إلا إعرابه، وهذا ما اشتدت الحاجة إليه أولا "أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم: الإعراب"٢١.

وقد كان الخط العربي كان خاليا من النقط، فلما دخل اللحن إلى لغتهم احتاج المسلمون أن يرفعوا اللبس عنها، والنقط نوعان: نقط الإعراب: وهو نقط الحركات، وهو ما يدل على ما يعرض للحرف من سكون وحركة، ونقط الإعجام: لتمييز المعجم من المهمل.

فأول ما وضع – دفعا للحن- نقط الإعراب وواضعه على الأغلب أبو الأسود الدؤلي٢٢. شكّل أواخر الكلمات بطريق النقط في بادئ الأمر فنقط الإعراب كانت بلون مداد يختلف عن مداد المصحف، أما نقط الإعجام فتأخر إلى عهد الحجاج، فوضعت نقط بنفس لون مداد المصحف نقطة تحت الباء والجيم، ونقطتين فوق القاف والتاء.

وطوّر الخليل بن أحمد الفراهيدي نقط أبي الأسود الدؤلي واهتدى إلى جعل الضمة واواً صغيرة فوق الحرف، والفتحة ألفا ممدودة فوق الحرف، والكسرة تحت الحرف، والتنوين وضع حرفين صغيرين، فوضع النقط والشكل مبني على إحكام القواعد النحوية، وهو بعد ذاك إعراب للقرآن.

وبذلك كان بداية علم إعراب القرآن مع بداية علم النحو كتطبيق للقواعد النحوية، ثم كان مصاحبا لكتب معاني القرآن التي تتعرض للنص القرآني من نواح متعددة، لرفع الإشكال عنه وبيانه، وبدأ يستقل حتى صار علما بذاته.

وتتجلى أهمية هذا العلم وفوائده في شرفه، وفضله فيه يصان الكلام من اللحن، كما أنه من مستمدات علم القراءات والوقوف٢٣.

هذا العلم مع علوم اللغة الأخرى اللصيقة بالقرآن الكريم، صان اللغة العربية وصفاها وأبعد عنها أسلوب الكهان وألبسها لباس المهابة والتقديس لكونها لغة الدين، فخلت من فضول الكلام وتسامت عن الصنعة والتكلف، وكثر الاقتباس من القرآن ومعانيه وأساليبه، على ألسنة الشعراء والخطباء والقادة، ولا يزال المعين الثر الذي يرشف منه الكتاب والأدباء في كل عصر، فظهر عندنا علم البلاغة والبيان لكشف إعجازه البياني الذي تحدى به الله الأنس والجن.

ولا ننسى المدارس اللغوية الأولى ممثلة بمدرسة الكوفة والبصرة التي أسست لعلم النحو وقواعده، ولا زال العلماء يعتمدون على آثار هاتين المدرستين بما خلفته من تراث ومصنفات كان لها الأثر الكبير في حماية اللغة وانتشارها.

٤- علوم أخرى:

مباحث علوم القرآن كثيرة، نشأت مع نزول القرآن الكريم، ولكن لم يكن مصطلح علوم القرآن معروفاً إلا في وقت متأخر، فهي معروفة للصحابة الكرام، فقد كانوا يهتمون بمعرفة نزول القرآن مكيه ومدنيه، بل أدق التفاصل في ذلك، وكانوا يعرفون ناسخه ومنسوخه وأسباب نزوله، وكل ذلك كان عن طريق الرواية التي حرص عليها الصحابة وبلّغوها لمن بعدهم من جيل التابعين، ومن التابعين إلى تابعيهم.

وبدأ التأليف فيها كعلوم مستقلة في وقت مبكر، فألف أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ في الناسخ والمنسوخ، وألف علي بن المديني ت ٢٣٤هـ في أسباب النزول، وألف ابن قتيبة ت ٢٧٦هـ في مشكل القرآن، واستمر التأليف في هذه العلوم ومنها غريب القرآن، وتطور التأليف وظهر الاهتمام في إعجاز القرآن البلاغي ومشكل القرآن وتبلورت هذه العلوم في بداية القرن الخامس لتضم كل هذه المباحث في مؤلف واحد، وهذا العلم مفتوح لكل ما يتصل بالقرآن الكريم، فدخل فيه حاليا الإعجاز العلمي بأنواعه: التشريعي والحضاري وغيره.

المهم أن هذه المباحث ساعدت في ترسيخ اللغة العربية لأنها كانت الأداة المعبرة عنها، وكما كان الاهتمام بالقرآن وبلاغته كان الاهتمام بكل هذه المباحث لأنها جاءات لخدمة كتاب الله تعالى،

والعلماء وطلبة العلم من عرب وغيرهم كانوا يتقنون هذه العلوم ويدرسونها باللغة العربية ويؤلفون بها مما كان له الأثر في تثبيت اللغة وانتشارها والحفاظ عليها.

المحور الثاني: المؤلفات غير المباشرة المتعلقة بالقرآن الكريم

ظهرت علوم كثيرة غير مباشرة حول نص القرآن، منها:

١- تفسير القرآن وعلومه

بدأ التأليف في هذا العلم مبكرا بعد أن كان جزءا من الحديث النبوي وبابا من أبوابه، وخصوصا أن هذا العلم كان في بدايته تفسيرا مأثورا يعتمد على الرواية التي كانت قبل التدين تتناقل مشافهة مع الحفاظ على سلسلة الإسناد، ثم تطور بتطور المجتمع وظهور العلوم التي لم تكن من قبل فكانت التفاسير اللغوية والفقهية والبلاغية والفلسفية، وكثر التصنيف والتأليف والبحث الجدي والمتابعة الفذة من قبل فحول العلماء وعلية القوم، فبدأت مصادره تتألق، وموارده تتواكب، وكان النواة لها مدرسة مكة المكرمة ومدرسة المدينة المنورة ومدرسة الكوفة في تفسير القرآن الكريم، معلماً بارزاً من معالم رفد العربية بكل ما هو أصيل ومبتكر، فكانت مدرسة مكة وهي أندر عطاء، وأغلى قيمة، تستمد قوامها من النبي وآله وأصحابه، وكان قوامها النخبة الرائدة من أصحاب ابن عباس ت ٦٨ هـ وابن عباس نفسه، ومولاه عكرمة ت ١٠٤هـ ومجاهد بن جبر ت ١٠٣هـ وأمثالهما من الرواد الأوائل.

وقد أصبح للتفسير مدارس ومذاهب تطورت على مر العصور، وهي على اختلافها تبدأ بشرح مفرادات القرآن وتراكيبه، ومن المعلوم أن إتقان اللغة العربية شرط أساسي للمفسر ليكون مؤهلا للقيام بالتفسير، وكذلك أسهمت التفاسير اللغوية للقرآن بخدمة اللغة العربية، وكذلك التفاسير البلاغية كالكشاف للزمخشري في الكشف عن بلاغة القرآن الكريم.

واعتبر العلماء رحمهم الله أن خدمة اللغة العربية والتأليف فيها خدمة للقرآن الكريم، والدفاع عنها تعد دفاعا عن حمى القرآن الكريم.

والتفاوت في فهم القرآن الكريم واضح منذ عهد نزول القرآن فيمن عاصر نزوله إلى وقتنا الحاضر، فكل من كان بلغة العرب أعرف كانت معرفته بمعاني نصوص الكتاب والسنة أكثر، وفهمه لمدولاتها أرسخ وأتقن.

"ولقد كان العرب في عهد نزول القرآن على جانب كبير من الإحاطة بلغتهم، ومعرفة أساليبها وإدراك حقائقها، فكانوا بذلك أقدر الناس على فهم القرآن وإدراك معانيه واستيعاب مراميه، ومن جاء بعدهم كان أقل درجة أو درجات لبعدهم عن صفاء اللغة العربية، وذلك لما عم الإسلام الأرض واختلط العرب بالعجم وتولد منهم الجيل الذي أصبح يبتعد رويدا رويدا كلما مر عليه الزمن، عن اللغة الأم وصفائها.

فقد كان الصحابة أعلى قدرا في فهم القرآن وإدراك حقائقه من التابعين، والتابعون كانوا أعلى قدرا ممن بعدهم، وهكذا كلما كان البعد عن صفاء اللغة، وكان البعد أشد في إدراك معاني القرآن وفهم مقاصده وأحكامه وأسراره"٢٤.

وتكمن أهمية اللغة العربية في فهم القرآن وتفسيره من خلال الآتي:

أولا : أن "من أسباب الخطأ في التفسير، ومن عوامل الانحراف في فهم الآيات القرآنية، ومن دواعي ظهور الفهومات الزائغة للنصوص الشرعية، الضعف في اللسان العربي قراءة، وكتابة، وفهما، وتطبيقا، والجهل بقواعده من التصريف، والنحو، والاشتقاق، والإعراب، والمعاني، والبيان، وغير ذلك من مصطلحات اللغة وأصولها، ثم التعامل مع هذه النصوص من خلال هذه العجمة. وطرأ هذا الضعف اللساني والجهل اللغوي؛ بسبب شيوع العجمة وانتشارها، وذيوع اللحن وظهوره، ودخول الأمم العجمية في الإسلام، وقلة العلم بأصول اللغة ومدلولاتها، وندرة الاهتمام بالحفاظ عليها"٢٥.

ثانيا: تعد معرفة اللغة العربية من أهم الأدوات لفهم القرآن الكريم وتفسيره، إذ القرآن نزل باللسان العربي، فلا شك أنه لا يصح فهمه وتفسيره إلا عن طريق ذات اللسان الذي نزل به الروح الأمين على قلب النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد أردك العلماء أهمية اللغة العربية في فهم القرآن وتفسيره، وحذروا من تفسير كتاب الله من غير علم بالعربية. قال مجاهد بن جبر: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب"٢٦، ويقول الشاطبي: القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة،

لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]. وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب، لا أنه أعجمي ولا بلسان العجم، فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة٢٧.

ثالثا: تعلم اللغة العربية مطلوب لفهم القرآن الكريم وتفسيره: معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، قال ابن عاشور: أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة والتصريف، والنحو والمعاني والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين"٢٨.

ففي هذا المنهج يهتم المفسّر اهتماماً شديداً بالقراءة حتى يقف على الصحيح منها، لأنّه ينبعث عن تحريف القراءة، تحريف اللفظ القرآني المنزل، ومن ثمّ تحريف المعنى، فالحرص على سلامة المنطق حرص على سلامة معنى النص القرآني، وصيانته من الشبهة أو التحريف.

والاهتمام بالقراءة يستدعي ـ منطقياً ـ الاهتمام بالصنعة النحوية في النص القرآني، إذ أنّ هذا الاهتمام بضبط أواخر الكلمات، إنّما يقصد أساساً إلى المعنى، فعلى المعنى يدور ضبط الكلمة وإعرابها، فالفاعل يرفع والمفعول به ينصب وما لحقه من الجر بسبب من أسبابه يجر.

ولذا نجد أن القرآن لا يفسر إلا على أساس لغة العرب فهذا الإمام مالك ابن أنس يقول: "لا أُوتَى برجل يفسِّر كتابَ الله غيرَ عالم بلغة العرب، إلا جعلتُه نكالاً"٢٩.

يقول في ذلك الطبري: "فإذا كان ذلك كذلك فبيِّنٌ، إذ كان موجودًا في كلام العرب الإيجازُ والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والترداد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر، وعن الكناية والمراد منه المصرح، وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخَّر، وتأخير ما هو في المعنى مقدَّم، والاكتفاء ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهار ما حظه الحذف - أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيِّه محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - من ذلك، في كل ذلك له نظيرًا، وله مِثلاً وشبيهًا٣٠.

يَعني أن كل هذه الأساليب العربية التي تعرفها العرب - موجودٌ مثلها في القرآن بما يفهمونه ويدركونه؛ لذلك لما جاءهم النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - بهذا القرآن، وقال لهم: (قولوا: لا إله إلا الله)، ما قالوا له: فسِّر وبيِّنْ، ما ندرى معنى ما تقول؟ بل فهموا أنها تعني الإذعان والتسليم.

مما سبق يتبين لنا أن علم التفسير وقراءة القرآن يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بهذه اللغة العربية الجليلة، ويرتبطان بمعرفة علومها من (المعاني) و(البيان).

ويقوم بعضُ الكُتَّاب بتفسير القرآن تفسيرًا بعيدًا عن الإعراب واللغة، ومعتمدًا على إيحاء الألفاظ وظلالها، وهذا ليس هو الطريقَ الذي سَلكه أهلُ العلم، وإن كان قد خُدع به من لم يؤسسوا علمَهم على الوجه الصحيح، كما أن بعض المشتغلين بالعلم يدعون إلى الرجوع إلى القرآن وحده في دراسة أصول العربية، من نحو وصرف وبلاغة، وهذا خطأ بيِّن؛ لأن القرآن إنما يُفهم في ضوء اللسان الذي أنزله الله به، وهذه قاعدة العلماء؛ ولهذا حفظوا اللسان، وحفظوا شعره ونثره؛ لأن هذا الذي يتناثر من أفواههم هو السبيل إلى فهم القرآن٣١.

وقد ألف العلماء قديما وحديثا في اتجاه التفسير اللغوي معتمدين على كتب اللغة والمعاجم، وكل هذه المؤلفات ساهمت في الحفاظ على خصوصية اللغة العربية.

٢- الحديث وعلومه

من المعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان من أفصح العرب وقد أوتي جوامع الكلم كما جاء في الحديث النبوي، كما أن الحديث وحي كالقرآن وحجيته كذلك كالقرآن الكريم، وهو منهج للحياة وتطبيق عملي للقرآن الكريم، وعليه فحفظ الحديث هو حفظ للدين، وكان من أول العلوم التي دونت بعد القرآن الكريمة لأهميته ومن أجل صيانته من اللبس والزيادة والنقص.

والحديث يضم كل علوم الدين، فعليه

يعتمد المفسر والفقيه والأصولي فلذلك كثرت المصنفات حوله وكونه بلغة العربية لغة النبي صلى الله عليه وسلم الأكرم فكان لها الأثر في حفظ اللغة والتمسك بها.

ولم تقتصر مصنفات الحديث على كتابة الحديث النبوي بل ما يتصل به من كتب التراجم والجرح والتعديل، والرحلة في طلب العلم، وكتب شرح الحديث النبوي، فضلا عن كتب علوم الحديث، لمعرفة أنواعه ومعرفة صحيحه من حسنه وضعيفه، والموضوع فيه كذبا. وهو علم فريد اختصت به هذه الأمة.

وطبيعي أن كل هذه المصنفات كانت باللغة العربية تؤكد ضبط الحديث ولغته وإعرابه لتأثيره على المعنى، وهذا بدوره ساهم في انتشار اللغة العربية وصيانتها، وقد تعلق به كثير من غير العرب فنجد أن أئمة الحديث أكثرهم من غير العرب بعد تعلموا القرآن وحفظوه واستقامت ألسنتهم حفظوا الحديث بسنده وبرعوا في التأليف والتصنيف في مناهج مختلفة.

وحاجة تعلم اللّغة العربيّة إلى علم الحديث قائمة، لأنّ لغة أحاديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كانت باللّغة العربيّة، فأصبحت العلاقة الجوهرية التي تربط بين الحديث كعلم شرعي والعلم اللغوي كعلم مقصدي .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يشجع أصحابه على تعلّم العربيّة حيث يقول: خَيْرُكُم مَن تَعلّم القُرآنَ وعَلَّمهُ متفق عليه. وسأل العباس الرسول صلى الله عليه وسلم ما الجمال؟ فقال: اللسان. وفي رواية أخرى: إنه سأله ما الجمال في الرجل، فقال: فصاحة لسانه. وقال: رحم الله امرأ أصلح من لسانه"٣٢، وروي عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تَعَلّموا الفَرائضَ وَعَلّمُوهَا النَّاسَ وَتَعلَّموا العلمَ وَعَلِّمُوه النَّاسَ فإنّي إمرؤ مَقبوضٌ وإنّ العلمَ سَيَقْبِضُ وَتَظْهَر الفتَنَ حَتَّى يَخْتَلفَ الاثْنَانِ في الفَريضَة لا يَجِدَانِ مَن يَفْصُل بَينَهُما)٣٣، وقوله: (تَعلّموا العربيّة وَعَلِّموها النّاسَ)٣٤.

وكذلك شجع الرسول عليه الصلاة والسلام على تعلم اللغات الأخرى٣٥، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليَهود؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأمنهم! قال زيد بن ثابت: أمَرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فَتَعَلَّمْتُ له كتاب يهود، وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي. فتعلمته، فلم يَمُرّ بي إلاّ نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب له إذا كَتب، وأقرأ له إذا كُتب إليه) ٣٦. وفيه دليل على جواز تعلّم لُغات الكُفّار إذا كان هناك حاجة لتعلُّمها.

يتبيّن من كل ذلك أنّ لتعلّم اللّغات أهمية بشكل عام، ولتعلم اللّغة العربيّة أهمية خاصة لعلاقتها بالقرآن الكريم الذي هو دستور المسلمين وكتاب هداية ورحمة ونور وشِفاءٌ لما في الصّدور، وفيه عباداتهم ومعاملاتهم. ومن تدبر فيه فقد تعقّل وتوسّع أُفقه. وكذلك علاقة اللغة العربية بالأحاديث النبوية التي تفصل وتشرح ما في القرآن وبلغة القرآن، فضلاً عن المصادر الإسلامية الكبيرة التي كُتبت بلغة القرآن الكريم.

تنبيه: لا بد للمفسر من معرفة مصادر وجوانب أخرى يعتمد عليها في تفسيره غير اللغة وحدها، كالسنة النبوية، وأسباب النزول، وقصص الآي، والسياق القرآني، والقرائن التي حفت بالخطاب حال التنزيل، وغيرها من المصادر التي لا يمكن أخذها عن طريق اللغة، ولذلك خُطِّئَ قول من أهمل هذه المصادر والجوانب، واعتمد على مجرد اللغة فحسب، إذ قد يكون المدلول اللغوي غير مراد في الآية٣٧، قال القرطبي: "من لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط"٣٨، وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: "وينبغي أن يتفطن ههنا لأمر لا بد منه وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن... فتدبر هذه القاعدة ولتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه... فهذا أصل من أصوله بل هو أهم أصوله"٣٩. فالرواية هي الأصل، وقواعد اللغة العربية تبع لها لا العكس. وبهذا يتبين لنا أهمية اللغة العربية للقرآن الكريم، وأهميتها في فهمه وتفسيره، وأنها لا غنى عنها لمريد التفسير، مع الحرص على عدم الاعتماد على مجرد اللغة في فهم كلام الله تعالى.

٣- علم الفقه وأصوله:

إن الأساسين الأَوَّلين لهذا الدين - القرآنَ والسنةَ - هما باللغة العربية، ولا يمكن فهمُهما، ومعرفةُ أسرارِهما،

واستنباطُ الأحكام منهما لغير المتمكّن من هذه اللغة المباركة.

وقد أدرك الأئمةُ الأقدمون أهميةَ اللغة العربية في فهم كلام الله – سبحانه وتعالى – وكلام رسوله (فهذا الإمام الشافعي – رحمه الله – يقول عنه زوجُ ابنته: "أقام الشافعي علمَ العربية وأيامَ الناس عشرين سنة، فقلنا له في هذا، فقال: ما أردت بهذا إلا استعانةً للفقه"٤٠، أي: ظلّ عشرين سنة يتبحّر في اللغة العربية وعلومها ليفقه ويفهمَ القرآن والسنة، ولا يستغرب منه هذا، فهو الذي يقول: "أصحابُ العربية جنُّ الإنس، يُبصرون ما لم يبصرْ غيرُهم"٤١.

وكان علماء الدين يقولون: "من تكلّم في الفقه بغير لغة تكلم بلسان قصير"٤٢.

ومن المعلوم أن أكثر المسائل الفقهيةُ والعَقَديَّةُ مبنيةٌ علَى القَضايا النَّحوية، وَالدلالاتُ اللُّغويةُ المستفادةُ من دلالة المُفْرَدَات، وَالترَّاكيب، وَالأدَوَات، وَالصِّيغ، وَأَثَر أَسَاليب الكَلام، وأَوجه الاستخدام اللُّغويِّ في الأَحكام الفقْهية.

وعلم أصول الفقه إنما هو علم أدلة الفقه، وأدلة الفقه إنما هي الكتاب والسنة، وهذان المصدران عربيان، فإذا لم يكن الناظر والمستنبط فيهما عالمًا باللغة وأحوالها، محيطًا بأسرارها وقوانينها تعذَّر عليه النظر السليم فيها، ومن ثم تعذَّر استنباط الأحكام الشرعية منها، ولذلك صار النحو شرطًا في رتبة الاجتهاد٤٣.

وبسبب موقع النحو وتصدُّره الرتبة السنية في العلوم، صنِّف ضمن الثلاثة التي تكوِّن علم الأصول، ويستمد منها مادته؛ قال الآمدي ت٦٣١ هـ: "وأما ما منه استمداده – أي: علم أصول الفقه – فعلم الكلام، وعلم العربية، والأحكام الشرعية"٤٤.

كما عرض أهل الأصول ومنهم الآمدي إلى الاسم والفعل وأقسامهما، والحروف وأنواعها، والمعاني التي تؤديها، ونحو ذلك من المباحث النحوية التي لا غنى للأصولي عنها٤٥.

ويؤكد العلماء المعاصرون هذه الحقيقة يقول وهبة الزحيلي: "تزداد هذه العلاقة وضوحا اذا علمنا ان موضوع علم اصول الفقه" هو الأدلة الشرعية الكلية من حيث يثبت بها من الأحكام الكلية، والأحكام الشرعية من حيث ثبوتها بالأدلة"٤٦، وهذه الأدلة والأحكام بما أن مدارها على أصلين أساسين هما: القرآن الكريم وأحاديث الرسول (، وهما باللغة العربية، وبدون معرفة اللغة العربية والإلمام بقواعدها والإحاطة بأساليب العرب في كلامها، لا يمكن التوصل إلى معرفة معاني القرآن الكريم والسنة النبوية معرفة كاملة، فضلا عن الوقوف على دلالات الألفاظ ومقاصدها واستنباط الأحكام منها.

وإن كان ذلك ممكنا في حق جيل الصحابة رضي الله عنهم ومن عاصر التنزيل، بحكم تمكنهم من العربية ونزول القرآن على لسانها وعدم حاجتهم إلى قواعد ضابطة يعتمدون عليها لفهم الكلام كما سيظهر فيما بعد، بداية مع الإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي ت ٢٠٤هـ ومع من جاء بعده ممن اهتم بعلم أصول الفقه، غير أن هذا العلم باعتباره قواعد ونظريات وكيفية استنباط الأحكام من الأدلة بوجه عام، نشأ في عصر الصحابة رضي الله عنهم حيث كان مصاحبا للفقه، فإن من الصحابة من كان يتصدر للفتيا والقضاء بين الناس كعمر بن الخطاب وابن مسعـود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وغيرهم، وكانوا على دراية تامة بقواعد اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، وبأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والعام، والخاص وسائر المباحث التي تكفل ببيانها علم أصول الفقه فيما بعد٤٧، ولقد أكد هذه الحقيقة الإمام تاج الدين السبكي وهو يتحدث عن شروط المجتهد حيث قال: "واعلم أن كمال رتبة الاجتهاد تتوقف على ثلاثة أشياء: أحدهما التأليف في العلوم التي يتهذب بها الذهن كالعربية وأصول الفقه وما يحتاج إليه من العلوم العقلية في صيانة الذهن عن الخطأ، بحيث تصير هذه العلوم ملكة الشخص فإذ ذاك يثق بفهمه لدلالات الألفاظ من حيث هي، وتحريره تصحيح الأدلة من فاسدها، والذي نشير إليه من العربية وأصول الفقه كانت الصحابة اعلم به منا من غير تعلم، وغاية المتعلم ان يصل إلى بعض فهمهم وقد يخطئ أو يصيب"٤٨.

لكن ما جاء بعد جيل الصحابة (رضي الله عنهم) كان أحوج إلى هذه القواعد والضوابط، سواء منها ما تعلق بالعربية نفسها او يعلم أصول الفقه او غيرها من العلوم الإسلامية الأخرى.

ومن ثم استمدت العربية شرفها وقدسيتها من انتسابها للوحي، يقول ابن فارس: "لما خص جل ثناؤه اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقفة دونه"٤٩.

فالتوسع في معرفة اللسان هو أحد

الركائز الرئيسة لفهم جمله واستنباط أحكامه، وكذلك كان هذا اللسان بالنسبة للعلوم الإسلامية الأخرى، إذ أنها نمت مع نمو شجرة الإسلام المباركة، وقامت على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وان جميع العلوم التي نقلت فيما بعد إنما كانت بباعث ديني، وهي تهدف جميعها خدمة أصلي الإسلام: القرآن الكريم والسنة المطهرة والحفاظ عليهما٥٠، وهذه العلوم كلها قائمة على العربية والتضلع فيها، يقول الزمخشري: "ذلك أنهم لا يجدون علما من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها، وعلمي تفسيرها واخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع"٥١، لذلك كان كل مشتغل بهذه العلوم التي تدور في فلك القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أحوج ما يكون إلى تعلم اللغة العربية، يقول ابن فارس: "إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة"٥٢.

فالذي لا يعرف اللغة لا يستطيع استخراج الأحكام واستنباطها من القرآن الكريم والسنة النبوية، وتزداد العلاقة بين علم أصول الفقه والدرس اللغوي تداخلا لتصل الى أبعد مداها، حيث اعتبر بعض الأصوليين من اللغويين الكبار الذين يوقف عند كلامهم ويحتج بلغتهم، وهذا ما تحقق بامتياز في الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي واضع علم أصول الفقه، يقول عنه عبد الملك بن هشام النحوي صاحب السيرة: طالت مجالستنا للشافعي، فما سمعت منه لحنة قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها"،٥٣، وقال عنه يضا: "الشافعي كلامه لغة يحتج بها"٥٤.

إن التأثير اللغوي على علم الأصول يظهر على مستويات متعددة من البحث الأصولي، ظل فيها هذا الأخير يمتاح من اللغة ومباحثها مضيفا عليها خصوصياته ومناهجه.

ففيما يتعلق بالألفاظ ودلالاتها تكلم الاصوليون عما يسمى بدلالة المطابقة والتضمين والالتزام، فإذا كان اللفظ يدل على جزئه سمى: تضمنا، وإذا دل على لازمه الذهني سمي: التزاما٥٥، وقسموا اللفظ ايضا باعتبار الافراد والتركيب٥٦، ولقد ناقش الأصوليون في بحوثهم جملة من القضايا اللغوية ذات العلاقة بالالفاظ ودلالاتها، فتكلموا عن التباين والفاظه وهي الالفاظ المختلفة الموضوعة لمعان مختلفة، كما نلاحظ وإذا تتبعنا كتب الأصوليين فإنا نجدهم يتكلمون عن المترادف والمشترك والمجمل والظاهر والمؤول، ثم تكلموا عن مدلول اللفظ اما معنى او لفظ مفرد او مركب، وقسموا المركب إلى استفهام وأمر والتماس٥٧، وعبروا عن ذلك أصوليا.

وقد تكلم الأصوليون ايضا في الالفاظ عن تقاسيم الأسماء فهي إما وضعية أو عرفية أو شرعية او مجاز مطلق، واذا تفحصنا هذه المصطلحات جيدا سنلاحظ ثنائية النسبة فيها للأصول من جهة، وللغة من جهة ثانية.

ومما يدخل في هذا الاطار أيضا مباحث الحقيقة والمجاز التي أوردها الأصوليون في كتبهم، حيث جاء خطاب الشارع ينضح بها في القرآن الكريم والسنة النبوية، وإن عدم ادراك الكلام والتمييز بين حقيقته ومجازه سيؤدي حتما الى الفهم الخاطئ، يقول الامام الغزالي: "ألفاظ العرب تشتمل على الحقيقة والمجاز... فالقرآن يشتمل على المجاز خلافا لبعضهم، فنقول المجاز اسم مشترك قد يطلق على الباطل الذي لا حقيقة له، والقرآن منزه عن ذلك... وقد يطلق على اللفظ الذي تجوز به عن موضوعه وذلك لا ينكر في القرآن الكريم مع قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وقوله: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ...﴾ [الكهف: ٧٧]، والفهم للآيتين على وجه المجاز لا الحقيقة.

واذا كانت معرفة الحقيقة والمجاز تزيل كثيرا من الغموض عن الكلام فإن كثيرا ما تبقى المعاني الخفية بحاجة إلى الاستنباط للوقوف على دلالات الألفاظ، ومعرفة الأحكام الواردة فيها، كل هذا جعل الأصوليين يذكرون الاجتهاد وشروطه وضوابطه، حيث يحتاج المجتهد من بين ما يحتاج إليه اللغة التي لا غنى عنها لتحقيق الاستنباط السليم.

والحديث عن الاجتهاد يتصل بالكلام عن التأويل٥٨، الذي هو عين الاجتهاد حيث كان منهجا سلك سبيله الأصوليون في تعاملهم مع نصوص الشريعة المبنية على اللغة التي كثيرا ما كانت لا تفصح عن قصد الشارع، يقول فتحي الدريني: ب: إن الشريعة الإسلامية قرانا وسنة بما هي نصوص تحتكم إلى منطق اللغة في الدلالة على مراد الشارع منها مبدئيا، لكن ظواهر هذه النصوص من المعاني المتبادرة من الصيغة قد لا تحدد ذلك المراد، فوجب الاجتهاد في تبينه، وهذه مرحلة بعدية قوامها الرأي وبذل الجهد العقلي لتبين قصد المشرع الذي يعول عليه في الحكم... هذا والتأويل من صميم الاجتهاد بالرأي

المستند الى المناهج الأصولية، وهو صرف المعنى اللغوي الظاهر المتبادر إلى معنى آخر، بالاستناد الى دليل من نص قاعدة عامة أو من حكمة التشريع، يجعل المعنى المؤول راجحا بالدليل، والتأويل من صلب الاجتهاد بالرأي في نطاق النص"٥٩.

ومن هنا تظهر أهمية الاحاطة باللغة، والعلم بمواقع الخطاب وأثر ذلك في توجيه الفهم السليم للنص، ويظهر كذلك عمق نظر الأصوليين الذين تلمسنا من خلال مناهجهم في الدرس الأصولي متانة الرباط بين أصول الفقه وقواعد اللغة.

وختاما أشير إلى أنه مهما يكن من تأثير للبحث اللغوي على الدرس الأصولي، فإن الأصوليين فاقوا النحاة واللغويين في استنباطهم المعاني الدقيقة التي تحتملها الألفاظ، والتي لا يستطيع ان يدركها إلا الأصولي، يقول الامام السبكي بأن الأصوليين دققوا في فهم أشياء من كلام العرب لم يصل اليها النحاة ولا اللغويون، وأن كلام العرب متسع جدا، والنظر فيه متشعب، فكتب اللغة تضبط الألفاظ ومعانيها الظاهرة دون المعاني الدقيقة التي تحتاج إلى نظر الأصولي واستقراء زائد على استقراء اللغوي٦٠.

الخاتمة

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١- كان للقرآن الكريم الأثر والفضل في حفظ اللغة العربية وحمايتها من الضياع والحفاظ على أصالتها، كما ساعد على تهذيب اللغة العربية والرقي بها نحو الكمال حتى أمست لغة عالمية، بل وحّد اللهجات العربية وأدخل في العربية ألفاظاً ومصطلحات جديدة.

٢- ظهرت بفضل القرآن علوما جديدة لم تكن لولاه مثل العلوم التشريعية كالحديث والفقه وأصولهما، والعلوم اللغوية كالنحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة، والعلوم الفلسفية كالمنطق والفلسفة الإسلامية والتوحيد وعلم الكلام وغيرها من العلوم. وإن التعمق في هذه العلوم التي وسيلتها اللغة العربية بالتصنيف والتأليف ساهمت في انتشار اللغة في عموم البلاد الإسلامية، وحافظت بنفس الوقت عليها وعلى أصالتها.

٣- ساهم التأليف بالحرف العربي في البلاد الإسلامية غير العربية على استعمال المفردات والاصطلاحات العربية في اللغات الأخرى.

٤- للقراءات القرآنية الأثر البارز في الحفاظ على لهجات العرب، وهي المصدر الأول والأساس في دوامها وتوثيقها.

الهوامش

١ . الرافعي، تاريخ آداب العرب ٢٢/١، وانظر: العيساوي، يوسف خلف، علم إعراب القرآن، الرياضك دار الصميغي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م، ص٣١.

٢ . انظر: مسند الإمام أحمد، ١٢٧/٣، ١٢٨، ٢٤٢، وسنن أبن ماجة، المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، والحاكم في المستدرك، ١٥٦/١.

٣ . أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن، والترمذي في الجامع، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في تعليمالقرآن، وسنن ابن ماجة، المقدمة، فضل من تعلم القرآن وعلمه.

٤ . عبد الصبور شاهين، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، ص ٧، (بتصرف)

٥ . انظر: مقدمة كتاب التيسير في القراءات السبع، ص ٥.

٦ . أبو حيان، البحر المحيط،٧/١.

٧ . الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ١٨١/٢.

٨ . انظر: النشر في القراءات العشر: محمد ابن الجزري، مراجعة: محمد علي الضباع، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ٤٤٦/١، والزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن ٣٠٠/١.

٩ . المقدمة: عبد الرحمن ابن خلدون، ٤٣٨.

١٠ . كتاب المصاحف، السجستاني، سليمان بن الأشعث، بغداد: مكتبة المثنى، ص ٢٢-٢٤.

١١ . مناهل العرفان: الزرقاني، ٣١٠/١-٣١٦.

١٢ . كتاب المصاحف، السجستاني، ص ٢٢-٢٤.

١٣ . الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ص ٤٥٤/١، والزرقاني، ٣٣٢/١.

١٤ . الفهرست، ابن النديم، ص ٤٥-٤٦.

١٥ . انظر: تهذيب اللغة ٦٠/٥-٦٣، ومقاييس اللغة ٢٣٩/٥ مادة لحن

١٦ . علم إعراب القرآن، العيساوي، ص ٣٢.

١٧ . فضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام، ص ٣٥٠.

١٨ . الوقف والابتداء في كتاب الله، ٧٤-٧٥ رقم ١٦، وقال محققه: إسناده صحيح.

١٩ . جمال القرّاء ٥٩٢/٢

٢٠ . انظر: التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، ص ٢٥٩- ٢٦٠.

٢١ . مراتب النحويين ص ١٩، والكلام لأبي الطيب اللغوي، والكتاب ص ٣٩.

٢٢ . مراتب النحويين ٢٠-٢٣.

٢٣ . انظر: علم إعراب القرآن: العيساوي، ص ٦٨-٨٣.

٢٤ أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، ص ١٣٨.

٢٥ . أسباب الخطأ في التفسير، دراسة تأصيلية، للدكتور: طاهر محمود يعقوب (٩٨٨/٢).

٢٦ . الإتقان في علوم القرآن ٢١٣/٤.

٢٧ . الموافقات ١٠٢/٢.

٢٨ . التحرير والتنوير ١٨/١.

٢٩ . الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ٢/ ١٧٩،

٣٠ . تفسير الطبري، ١/١٢.

٣١ . البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري؛ محمد أبو موسى، ص ٧.

٣٢ . في حديث رواه الحاكم وصححه.

٣٣ . رواه الحاكم.

٣٤ . رواه البيهقي وابن الأنباري في الإيضاح من قول عمر بن الخطاب، وقد رواه ابن أبي شيبة عن أبي بن كعب موقوفًا.

٣٥ . هناك حديث متداول عند الناس هو (مَن تَعلمَّ لُغَةَ قَومٍ أَمِنَ شَرَّهم أو مَكْرَهُم)، وهو حديث ضعيف.

٣٦ . رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي.

٣٧ . انظر: التفسير اللغوي، للطيار، ص: (٥٠).

٣٨ . تفسير القرطبي (٣٤/١).

٣٩. بدائع الفوائد (٣/ ٢٧-٢٨).

٤٠. الفقيه والمتفقه: الخطيب البغدادي، ٤١/٢ تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، ط دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤١٧هـ.

٤١. آداب الشافعي ومناقبه، الرازي، ص ١٥٠.

٤٢. الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي ٣٥٨/١.

٤٣ . يُنظر: الكوكب الدري؛ الإسنوي ص ٤٢، مقدمة المحقق.

٤٤ . ينظر: الإحكام في أصول الأحكام؛ للآمدي؛ تحقيق: الشيخ عبدالرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ ١/ ١٢.

٤٥ . الإحكام؛ الآمدي، ١/ ١٦-٧٠.

٤٦ . انظر أصول الفقه الاسلامي وهبة الزحيلي، ٢٧/١، ط: ١ ١٩٨٦م.

٤٧ . انظر هامش الابهاج –كلام المحقق ٤/١ ط١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤م.

٤٨ . انظر الابهاج في شرح المنهاج ٨/١.

٤٩ . انظر الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب وكلامها ص: ١٦ ،ط : دار احياء الكتب العربية بتحقيق احمد صقر، دون تاريخ.

٥٠ . المنهج الاسلامي في الجرح والتعديل، فاروق حمادة، ص: ٢٥، ط٢: دار نشر المعرفة، ١٩٨٩م.

٥١ . انظر المفصل: الزمخشري ٨/١.

٥٢ . انظر الصاحبي ص: ٥٠ تحقيق محب الدين الخطيب، وانظر مسلك الدلالة بين اللغويين والأصوليين: عبد الحميد العلمي ص: ٦/ ٧ ط ١ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م انفوبريت

٥٣ . انظر ما أورده محقق كتاب الرسالة عن الإمام الشافعي من أقوال العلماء فيه، تحقيق أحمد محمد شاكر ص: ٣، ط دار الفكر، ١٣٠٩هـ.

٥٤ . انظر الرسالة للامام الشافعي ص:٣ من مقدمة المحقق.

٥٥ . انظر الإبهاج في شرح المنهاج ٢٠٤/١، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م.

٥٦ . انظرالمستصفى من علم الاصول ٣٠/١.

٥٧ . انظر هذه المباحث مثلا في فهرس الابهاج، آخر الجزء الثالث.

٥٨ . المراد بالتأويل معناه الاصطلاحي وهو "صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى مرجوح يحتمله لدليل يصيره راجحا" انظر إرشاد الفحول للشوكاني ٣٢/٢ ط، دار الكتاب العربي، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٥٩ . انظر المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع ص:١٧- ١٨، ط٢، الشركة المتحدة للتوزيع، ١٩٨٥م.

٦٠ . انظر الابهاج ٧/١-٨.

المصادر والمراجع

الإبهاج في شرح المنهاج: ط١ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م.

الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ، ط دار إحياء العلوم، بيروت ١٩٨٧م.

الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي؛ تحقيق: الشيخ عبدالرزاق عفيفي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٢هـ

إرشاد الفحول، محمد علي الشوكاني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية ط ١، دار الكتاب العربي، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

أسباب الخطأ في التفسير، دراسة تأصيلية، طاهر محمود محمد يعقوب، ط دار ابن الجوزي، الرياض ١٤٢٥هـ.

أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، ط دار النفائس، عمان ١٩٨٦م.

أصول الفقه الاسلامي: وهبة الزحيلي، ط: ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي ط دار إحياء التراث.

بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية، ط دار الكتاب العربي، بيروت.

البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: د. محمد أبو موسى، ط دار الفكر العربي، القاهرة.

تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي، ط دار الكتاب العربي، بيروت.

التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر ٢٠٠٨م.

التفسير اللغوي للقرآن الكريم: مساعد بن سليمان الطيار، ط دار ابن الجوزي، ١٤٣٢هـ.

التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، أبو الحسن السعيدي، علي بن جعفر بن محمد، تحقيق: غانم قدوري، ط مجلة المجمع العلمي العراقي، م ٣٦، ج ٢، حزيران ١٩٨٥.

تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.

التيسير فى القراءات السبع: الإمام أبو عمرو الداني، ط دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٤م.

جامع البيان في تفسير القرآن: ابن جرير الطبري، تحقيق عبد الله التركي، ط دار هجر، القاهرة ٢٠٠١م.

الجامع الكبير سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، ت: ٢٧٩هـ، تحقيق: بشار عواد معروف، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد، ط دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
جمال القراء وكمال الإقراء: أبو الحسن، علم الدين السخاوي، تحقيق: مروان العطيَّة، محسن خرابة، ط دار المأمون للتراث، دمشق وبيروت، ١٩٩٧م.
الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، ط دار ابن الجوزي بالسعودية، ١٤١٧هـ.
الرسالة: الإمام الشافعي، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، ط دار الفكر، ١٣٠٩هـ.
سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر، بيروت.
سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط دار الفكر، بيروت.
الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب وكلامها، ط دار احياء الكتب العربية بتحقيق أحمد صقر، د. ت.
صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط١ دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
علم إعراب القرآن، يوسف خلف العيساوي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض ٢٠٠٧م.
فضائل القرآن: أبو عُبيد القاسم بن سلام البغدادي، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، ط دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ١٩٩٥م.
الفقيه والمتفقه: الخطيب البغدادي، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، ط دار ابن الجوزي بالسعودية، ١٤١٧هـ،
الفهرست: محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، ط دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.
القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث عبد الصبور شاهين، ط مكتبة الخانجي، القاهرة.
كتاب المصاحف: سليمان بن الأشعث السجستاني، بغداد: مكتبة المثنى.
الكلام: أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغويّ حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م.
الكوكب الدري: أبو محمد الأسنوي، تحقيق: د. محمد حسن عواد، ط دار عمار، عمان، ١٤٠٥هـ.
مراتب النحويين: أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٢م.
المستدرك على الصحيحين: الحاكم، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.
المستصفى في علم الأصول: أبو حامد الغزالي الطوسي، تحقيق: محمد بن سليمان الأشقر، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.
مسلك الدلالة بين اللغويين والأصوليين: لعبد الحميد العلمي، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
مسند الإمام أحمد بن حنبل ت: ٢٤١هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، ط١ مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١م.
معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون، ط اتحاد الكتاب العربي، ١٤٢٣هـ.
المفصل في صنعة الإعراب: جار الله الزمخشري ، تحقيق: علي بو ملحم، ط مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٣م.
المقدمة: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٩م.
المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي: فتحي الدريني، ط٢ الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٩٨٥م.
مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، ط٣ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
المنهج الاسلامي في الجرح والتعديل: فاروق حمادة، ط٢: دار نشر المعرفة، بيروت، ١٩٨٩م.
الموافقات أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان دار ابن عفان.
النشر في القراءات العشر: شمس الدين محمد بن الجزري، ت ٨٣٣هـ، تحقيق علي محمد الضباع ت ١٣٨٠هـ ط التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية.
الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل: أبو جعفر الكويفي، محمد بن سعدان، تحقيق: محمد خليل الزروق، دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ٢٠٠٢م.